العنوان:	التسامح اللساني في الحضارة العربية والإسلامية: ابن حزم الأندلسي والبيروني أنموذجا
المصدر:	مجلة كلية الآداب
الناشر:	جامعة القاهرة - كلية الآداب
المؤلف الرئيسي:	بوعبدالله، لعبيدي محمد
المجلد/العدد:	مج83, ج6
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2023
الشهر:	يوليه
الصفحات:	47 - 74
رقم MD:	1438220
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	التنوع اللغوي، التسامح اللساني، السيرة النبوية، الحضارة العربية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1438220

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

بوعبدالله، لعبيدي محمد. (2023). التسامح اللساني في الحضارة العربية والإسلامية: ابن حزم الأندلسي والبيروني أنموذجا.مجلة كلية الآداب، مج83, ج6 ، 47 - 74. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1438220

إسلوب MLA

بوعبدالله، لعبيدي محمد. "التسامح اللساني في الحضارة العربية والإسلامية: ابن حزم الأندلسي والبيروني أنموذجا."مجلة كلية الآدابمج83, ج6 (2023): 47 - 74. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1438220

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

التسامح اللساني في الحضارة العربية والإسلامية

ابن حزم الأندلسي والبيروني أنموذجاً (*)

أ.د لعبيدي بوعبدالله
رئيس قسم اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية
أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة

الملخص:

لا شك أن الحضارة العربية والإسلامية قد عرفت تنوعاً لسانياً، من خلال الانفتاح على الآخر، ممّا أفرز إقامة حوار حضاري راقٍ كانت إحدى وسائله الترجمة والنقل. وقد بدا هذا جلياً خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، في بذل العلماء كل طاقاتهم وسعيهم الحثيث من أجل نقل العلوم وترجمة المفاهيم من عدة لغات إلى العربية، وأعقب ذلك إبداع علمي وتميز معرفي في مختلف العلوم والمعارف والفنون.

ويتنزَّل هذا الانفتاح ضمن منظومة فكرية ودينية، نتجت من كون التنوع اللغوي واختلاف الألسن آيةً من الآيات الكونية، والتسامح اللساني ملمحاً إنسانياً، حيث أرسل الله سبحانه الرسل إلى أقوامهم بلسانهم؛ لتحقيق إحدى أهم الوظائف الرسالية التواصلية وهي الوظيفة البيانية.

وفي هذا الصدد يحاول البحث –بمنهج وصفي تحليلي– في استجلاء مظاهر التسامح اللساني من خلال النقاط الثلاث الآتية:

أولًا – التسامح اللساني في القرآن الكريم: من خلال إبراز نماذج من عدة وضعيات تخاطبية أهمها بين الأنبياء وأقوامهم؛ تهدف جميعها إلى تحقيق الوظيفة البيانية، وتبرز

(*) **مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد (٨٣) العدد (٦) يوليه ٢٠٢٣.**

مدى الترابط الأخوي بينهم.

ثانيًا – التسامح اللساني في السيرة النبوية: وفي موقفه ﷺ وموقف أصحابه منه.

ثالثًا – التسامح اللساني في الخطاب العلمي قديماً: ونعرض فيه نماذج من مواقف علمائنا قديماً في مجال التسامح اللساني تنظيراً وممارسةً، فمن المنظرين للتسامح اللساني ابن حزم، وممّن مارسوا هذا المفهوم الراقي أبو الريحان البيروني، ما جعل هؤلاء يقدّمون الصورة المشرقة والمشرّفة عن حضارة أسهمت في البناء الفكري والعلمي للإنسانية.

الكلمات المفتاحية: الآخر – البيروني – التسامح اللساني – ابن حزم – الحضارة العربية والإسلامية.

Linguistic tolerance in the Arabic & Islamic civilization ʾibnu ḥazm ʾal-ʾandalusī wa ʾal-bayrūnī as a model

Dr. Labidi Bouabdallah
Mohamed Bin Zayed University for Humanities
UAE – Abu Dhabi
Labidi.bouabdallah@mbzuh.ac.ae

Abstract

There is no doubt that the Arabic & Islamic civilization has known linguistic diversity through openness to the other, which has resulted in the establishment of a sophisticated civilized dialogue, one of which was translation and transmission. This was evident during the 4th and 5th centuries AH, when scholars exerted all their energies and strived to transfer science and translate concepts from several languages into Arabic, and this was followed by scientific creativity and cognitive distinction in various sciences, knowledge and arts.

This openness is falls within an intellectual and religious system that makes the linguistic diversity and the difference of languages one of the cosmic signs, and linguistic tolerance a human appearance, where every messenger sent by God to his people with their languages. To achieve one of the most important mission and communicative functions, which is the demonstration function.

In this regard, this research falls, which attempts -through a descriptive and analytical approach -to elucidate the manifestations of linguistic tolerance through the following three points:

1st: Linguistic tolerance in the Qur'an: by highlighting examples

of several discursive situations, the most important of which are between the prophets and their people. All of them aim to achieve the demonstration function, and highlight the extent of fraternal bonding between them.

2nd: Linguistic tolerance in the position of Prophet Muhammad and the position of his companions on the multilingualism.

3rd: Linguistic tolerance in ancient scientific thinking and discourse: In it, we present examples of the positions of our scholars in the past in the field of linguistic tolerance in theory and practice. Among the theorists ʾibnu ḥazm, and those who used this sophisticated concept, ʾal-bayrūnī, which made them present a bright and honorable picture of a civilization that contributed to the intellectual and scientific construction of humanity.

Keywords:
The other - ʾal-bayrūnī - Linguistic tolerance - ʾibnu ḥazm - Arab & Islamic civilization.

المقدمة

لا شك أنّ التسامح قيمة أخلاقية ثابتة، ومنهل فكري سام، وملمح إنساني متعدّد الأبعاد؛ لأنّه يتّصل بجميع مناحي الحياة؛ فهو –لذلك– ضرورة معيشية لا غنى للكائن البشري عنها؛ إذ بها يبرز ذاته، ويعزّز كيانه، ويرسّخ صفة الاجتماعية فيه، بوصفه فرداً قابلًا للتعايش وبناء علاقات اجتماعية ناجحة وفاعلة، ويؤصّل خصائصه الإنسانية السامية بين أفراد جنسه وسائر المخلوقات.

إنّه ألف الحياة وياؤها، وعنوان ما به يتم التواصل بين الأفراد والمجتمعات والثقافات والحضارات على اختلاف مشاربها. إنه مفهوم ممتد لمنظومة مفهومية متماسكة من أنفس ما أنجبت المنظومات الأخلاقية على غرار مفهوم التعايش والتعاون والتكافل والتراحم والمحبّة والرّفق...إلخ.

بل يمكن القول بأن جميع هذه المفاهيم ليرتبط بعضها ببعض في علاقة تركيبية استبدالية (Syntagmatic/ Paradigmatic) تشبه علاقة الدوال بمدلولاتها؛ لتشكل بنية فكرية وأخلاقية عميقة، يسعى الفرد إلى استثمارها في

مختلف علاقاته التفاعلية، وترسيخ أصولها في تأملاته النظرية ومنجزاته الواقعية.

ولما كان الإنسان يمثّل وحدةً نفسيةً وعقديةً واجتماعيةً وثقافيةً ومعرفيةً متكاملة، فإن التسامح لم يدع مجالًا من هذه المجالات إلا وضارب فيه بسهم. فهو في الكون بمثابة الدم الذي يحرك الدورة الحضارية ويؤصِّل القيم الإنسانية في تناغم وانسجام تامّ؛ ليضمن لها النماء والتجدد والارتقاء، ويطعِّمها ضد كل السلوكات المنحرفة مهما كانت مظاهرها ومسبباتها؛ مثل: الميل إلى الكراهية، والعنصرية، والتنافر، ومعاداة الآخر، وكل السلوكات العدوانية التي تدخل ضمن «إيذاء الغير أو الذات أو ما يرمز لهما». (عيسوي، ١٩٩٣، ص٢٣)

ولا شك أن الحديث عن موضوع التسامح هو حديث عن الكون في نظامه المتزن، وحديث عن الإنسان في إنسانيته الناضحة، المفطورة على حب الخير والدعوة إليه، وتتبع الجمال في مراتعه؛ لاستقطار ملامحه المنضوية فيه، واستقراء الحق لتحقيق غاياته النبيلة.

ولذا كان موضوعًا متشعّب النواحي، متعدد التناول، إذ يمكن تناوله من جوانب مختلفة ومترابطة، أبرزها: الدينية، والاجتماعية، والنفسية، والثقافية، والفلسفية، والحضارية، واللسانية.

والحقيقة أن إفراد هذه الجوانب ببحث مستقل لينوء بالعصبة أولي القوة؛ لذا كان لزامًا في هذا البحث التركيز على جانب مهم من هذه الجوانب، وهو التسامح اللساني؛ وذلك من خلال استقراء نماذج منه في الحضارة العربية والإسلامية إبّان عصرها الذهبي.

١ – أهداف البحث:

التعريف بالتسامح اللساني، ودوره في التواصل الحضاري من خلال:

- الوقوف على مفهوم التسامح اللغوي ودوره في تحقيق الوظيفة البيانية في

القرآن الكريم، وتتبع مظاهره في السيرة النبوية وسير الصحابة

▪ إبراز خصائص التسامح اللساني بوصفه قيمة تنضاف إلى قيم التعايش والتسامح وقبول الآخر، من خلال عرض جملة من النماذج والجهود النظرية والممارسات اللغوية، تبرز التسامح بوصفه آلية تواصلية، ونسقًا فكريًّا راقيًا.

▪ رصد مكانة الترجمة من وإلى اللغة العربية في الانفتاح على ما لدى الآخر من العلوم والمعارف والفنون، بوصفها مظهراً من مظاهر التسامح اللساني.

٢ – أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث الحالي في رصد مظاهر التسامح اللساني في الحضارة العربية والإسلامية، من خلال عرض نماذج من النصوص القرآنية، والحديث النبوي، والتفكير العلمي لدى ابن حزم والبيروني، بوصفهما عاشا في مرحلة ازدهار هذه الحضارة، والبحث بهذا يعطي صورة واضحة على موقف الإسلام والعلماء المسلمين من التنوع اللغوي، وما يتبعه من تسامح ديني، ينضاف إلى قيمة التسامح الديني والأخلاقي بشكل عام.

٣ – الدراسات السابقة:

من الدراسات التي وقف عليها الباحث ذات الصلة بموضوع التسامح عموماً، والتسامح اللساني على الخصوص، وكذا ما تعلق بالترجمة كأداة حضارية مساعدة على التواصل الحضاري والتعايش الإنساني بين الشعوب: ما يأتي:

أ – ما تعلق بموضوع التسامح عموماً، وقد أنجزت فيه دراسات عديدة أذكر منها:

١ – **دراسة الباحث حسن عبد الجليل العبادلة (٢٠١٢)، بعنوان: "التسامح في القرآن الكريم"**: وقد أكد الباحث فيها ما يأتي:

– إن السماحة والصبر هما أساس الدين الإسلامي الحنيف، وأساس جميع

الديانات السماوية.

– رغم عدم وجود لفظ التسامح واشتقاقاته إلا أنه اشتمل على العديد من الأخلاق التي تتصل بخلق التسامح، نحو الصبر والمغفرة والصفح ...إلخ.

– فتح القرآن الكريم جميع أبواب التسامح، وعالج كل ما يؤدي إلى عدم التسامح بأفضل الأساليب.

– في قصص الأنبياء تطبيق عملي للتسامح.

– التسامح وسيلة للتعايش، وأداة لنبذ الفساد والجهل. (ينظر: العبادلة، ٢٠١٢، ٣٨)

٢ – دراسة الباحث عمر بن سليمان (٢٠١٧)، بعنوان: "تأصيل مفهوم التسامح في التراث العربي الإسلامي":

التي أشار فيها إلى أن تأصيل مفهوم التسامح "يستدعي ترسيخ ثقافة الحوار والتواصل واستبعاد ثقافة العنف والصدام". وقد دعت الدراسة إلى تجديد قيمة العفو والتسامح والارتقاء بهما إلى مستوى احترام الآخر. بالإضافة إلى الدعوة إلى الكشف عن مفهوم التسامح الموجود في التراث العربي الإسلامي بالأصالة. (ينظر: بن سليمان، ٢٠١٧، ص١٣٢)

ب – ما تعلق بموضوع التسامح اللساني:

١ – دراسة الباحث محمد جعفر العارضي (٢٠١٩)، بعنوان: "سياسة التسامح اللساني القرآني، منهج في اللسانيات الدلالية الحضارية وتحليل الألفاظ الأعجمية في سياق الجنة، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية":

وفيها تناول التسامح اللساني في الخطاب القرآني من خلال إنتاج إخاء لغوي بتوظيف ألفاظ من غير العائلة اللغوية السامية (حامية وهندو أوروبية وتركية)، وأن ذلك ليس قصورا في اللسانية العربية، بل وردت لأهداف إنسانية عالمية؛ من خلال إشاعة أجواء من الانفتاح على الآخر، وكذلك لأهداف تداولية، مثلت –برأي الباحث– إعجازاً كونيًّا وخاصَّةً قرآنية، تتجلى

في "الإضافة الدلالية التي أكسبها السياق القرآني لهذه اللفظة الأعجمية أو تلك" (العارضي، ٢٠١٩، ٥٨) .

٢ – دراسة الباحث مختار درقاوي (٢٠١٣)، بعنوان: "التسامح اللغوي في بعض مدونات الصواب اللغوي":

وفيها عرض الباحث إلى طرق التيسير والتسهيل التي انتهجها أصحاب مدونات التصحيح اللغوي، انطلاقا من قناعات اللغوين القدامى من أن "الطريق الذي يخدم اللغة العربية في وضعها الراهن ليس طريق المتشددين الذين عرفوا بشدتهم في المحافظة على اللغة وغلوا في ذلك غلواً كبيراً... فوقفوا عند نصوص المعاجم لا عند نظام اللغة" (درقاوي، ٢٠١٣، ٣١–٣٢). وذكرت الدراسة ثلاث وسائل من وسائل التسامح اللغوي في مدونات الصواب اللغوي هي: المجاز، والتخفيف، والتضمين.

ج – ما تعلق بأداة الترجمة: ونكتفي هنا بـــ:

دراسة الباحث علي بن إبراهيم النملة (٢٠٠٦)، بعنوان: "النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية":

وهي دراسة مطولة، تمثل أنموذجاً من نماذج الدراسات التي تناولت الترجمة والنقل ودورهما في بناء الحضارة الإسلامية، ومن بين أهم ما خلص إليه فيها الباحث ما يأتي:

- إفادة الثقافة الإسلامية من الثقافات الأجنبية إبان قيام الحضارة الإسلامة.
- تشجيع الخلفاء المسلمين حركة النقل والترجمة.
- لقي النَّقلَة والمترجمون من غير المسلمين حسن المعاملة من الخلفاء والولاة والأفراد، وعاشوا السماحة.
- لم يكن العرب مجرد نقلة ومترجمون بل صقلوه ونقحوه وأضفوا عليه لمسنة الأصالة الإسلامية.

- استوعبت الترجمة المفاهيم والمستجدات، وشملت العلوم والمعارف والآداب. (النملة، ٢٠٠٦، ص١٧١ وما بعدها)

تعليق على الدراسات السابقة وموقع البحث الحالي منها:

من خلال الدراسات السابقة للموضوع، التي تمثل عينة مقتضبة تعكسف حضور المفهوم في التناولات البحثية يمكن ملاحظة أمور أساسية هي:

- إن أول ما يتبادر للأذهان عند طرح مفهوم التسامح أنه قيمة تندرج ضمن منظومة أخلاقية ودينية، وهو كذلك بوصفه أحد موضوعات مجال الأخلاق والتعليمي السماوية.
- ومع ذلك فإن التسامح مفهوم يلقي بظلاله على جميع مناحي الحياة العقدية والاجتماعية والثقافية والحضارية.
- إن مجال البحث في قضية التسامح اللساني مجال واسع، ومن الصعوبة بمكان فصل البحث فيها عن بقية العناصر المرتبطة بقضية اللغة والثقافة والحضارة، بوصف الألسن البشرية، ترتبط وظيفيا وابستيمولوجيًا بالبنى الفكرية والدينية والسوسيوثقافية للمجتمعات، فكان بذلك التنوع اللساني، والاهتمام بفهم ما لدى الآخر عبر وسيلة الترجمة –التي تعد شكلًا من أشكال الوساطة الحضارية والثقافية–، والاهتمام بجميع الأنظمة اللسانية البشرية وجهًا من أوجه التسامح الفطري الذي يؤدي إلى التعايش الإنساني، وهو ما يسعى البحث إلى إبرازه من خلال عرض نماذج من تفكير العلماء المسلمين (البيروني وابن حزم الأندلسي) ومواقفهم تجاة القضية اللسانية البشرية.

- **الإشكالية:**

إن اللافت للانتباه في موضوع اللغة –بوصفها ظاهرة إنسانية– أن لها

ميزتان:

أ – ميزة وظيفية: تتجلي فيما تؤديه هذه اللغة –أيًّا كانت– من وظائف عديدة أبرزها الوظيفة التواصلية؛ لتعزيز أواصر العلاقات الإنسانية.

ب – وميزة موضوعية: بحيث تشكل في حد ذاتها موضوعاً حصيفًا للدراسة، عند اللسانيين باختلاف مدراسهم ومناهجهم، لرصد أنظمتها، واستنباط قوانينها، وتبيين أحكامها.

وإن موضوع التسامح اللساني ليتعلق بالميزتين معًا؛ فهو يقع بين ثنائية (الوظيفة والموضوع)، وبعبارة أخرى، فإن التسامح اللساني يتجلى في اللغة بما تؤديه من وظائف بين المتكلمين، وفي الوقت نفسه، يعد موضوعاً لصيقًا بالظاهرة اللغوية، بل ربما يرقى أن يكون رديفًا لها؛ بوصفها مظهراً معرفيًّا، واستجابةً سلوكيّةً، وتفاعلًا تربويًّا واجتماعيًّا.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الحضارة العربية والإسلامية قد عرفت مظاهر متعددة للتسامح على مدى التاريخ، وخاصة في فترات ازدهارها، وأبرزها: التسامح الديني، والثقافي، والاجتماعي، والأخلاقي والحضاري، بكل ما تحمله الحضارة من قيم إيجابية، وتداعيات بنّاءة؛ تنهض بها الأمم، وتضمن لها البقاء والنماء والرخاء.

وغني عن البيان أن اللغة عنصر من تلك العناصر القيمية الإيجابية، ومقوم من المقومات البناءة الفاعلة التي تعكس مكنونات الذات ومدى الوعي بالآخر. وهي بذلك من جملة ما تعزَّز به بناء الحضارة العربية والإسلامية، التي شهدت تسامحًا لسانيًّا منقطع النظير. فإن التساؤل الجوهري الذي يمكن طرحه في هذا الصدد هو:

ما مظاهر التسامح اللساني وملامحه في الحضارة العربية والإسلامية؟

وهو تساؤل جوهري يمكن أن تتفرع عنه التساؤلات الفرعية الآتية:

١ – ما موقف القرآن الكريم والسنة النبوية ومواقف الصحابة، من مفهوم التسامح اللساني؟

٢ – كيف تجلى لتسامح اللساني عند ابن حزم الأندلسي عن تناوله قضية الألسن البشرية؟

٣ – ما دور الترجمة في تعزيز روح الانفتاح الحضاري على الآخر من خلال ممارسة أبي الريحان البيروني لها؟

ويكفي للإجابة عن هذه التساؤلات التطرق إلى التسامح في القرآن الكريم بما يحتويه من وضعيات تخاطبية عديدة، أبرزها الحوارات التي نقلها لنا القرآن الكريم بينه –عز وجل– وبين عباده من رسله وغيرهم، وبين الأنبياء والرسل وأقوامهم، وعرض نماذج من ذلك.

كما يمكن رصدها في سيرته –صلى الله عليه وسلم– وموقفه وموقف أصحابه –رضي الله عنهم– من التنوع اللساني، وأمرِهِ بتعلُّم اللغات.

وأخيراً في تعايش العلماء والمفكرين المسلمين الإيجابي –إبان فترة ازدهار الحضارة العربية والإسلامية– مع الظاهرة اللسانية، تنظيراً وتطبيقًا، من خلال نموذجين هما ابن حزم الأندلسي وأبي الريحان البيروني.

منهج البحث:

وللإجابة عن التساؤل البحثي اتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي للوقوف على دور اللغة في فتح آفاق التحاور والتفاهم بين الحضارات، وبناء جسور التفهم والتفاهم والحوار بين مختلف الشعوب والحضارات، ورصد أهم مظاهر التسامح اللساني في تفكير علماء الحضارة الإسلامية؛ للوصول –في النهاية– إلى عرض نماذج من المواقف التي تؤكد الدور الذي تؤديه الألسن البشرية –بوصفها آية من الآيات الكونية– في التقريب بين الشعوب، وهو ما نحت إليه منطلقات اللسانيات الحديثة، في جعل جميع الألسن البشرية والممارسات اللغوية موضوعا لها، وذلك وفق الخطَّة الآتية:

– خطة البحث:

ممّا سبق، يمكن أن نجيب عن إشكالية البحث من خلال التطرق إلى

العناصر الآتية:

أولًا – التسامح اللساني في القرآن الكريم.

ثانيًا – التسامح اللساني في السيرة النبوية.

ثالثًا – التسامح اللساني في التفكير والخطاب العلمي.

أولًا – التَّسامح اللِّساني في القرآن الكريم:

يدل لفظ التسامح في اللغة على معنى التساهل (انظر: مجمع القاهرة، ٢٠٠٤، ٤٤٧). وأما اصطلاحًا فيعرف التسامح بأنه: "الاستعداد لقبول معتقدات أخر غير معتقدات المرء"، (العارضي، ٢٠١٩، ٦٠)، ولفظ المعتقدات قد يوهم في البداية أن التسامح يتعلق بالسياق الديني والعبادي فحسب، "إلا أن لهذا المفهوم حضوراً في مجالات أخرى؛ إذ يرى بعضهم أنه "مقصد من مقاصد الدين واللغة" (درقاوي، ٢٠١٣، ٣١).

وأما في المجال اللساني الذي نحن بصدده فيعرف التسامح اللساني بأنه: "قبول التعددية اللغوية واستعمال لغة قوم آخرين والتحاور بها معهم، وعدم التعصب للغة الأم". (المرجع نفسه، ٦٠)

وإذا كان الإسلام قد دعا إلى التسامح في الجانب العقدي والعبادي والاجتماعي، فإنه جعل التعدد اللساني والتنوع الثقافي وجهًا من أوجه التواصل الإنساني، وآية من الآيات الكونية –التي تنضاف إلى بقية الآيات– لتظهر جمالية الكون وقدرة الخالق، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم، ٢٢] ، قال الطبري: (ت٣١٠هـ): «أي: «واختلاف منطق ألسنتكم ولغاتها ». (الطبري، ٢٠٠١، ١٨/ ٤٧٩)

ولأجل هذا الهدف التواصلي دعا سيّدنا موسى عليه السلام الله –عز وجل– بأن يحلّ عقدة من لسانه، لتتحقق الجمالية التواصلية في خطابه؛ بعدما جثمت على لسانه عجمة؛ بسبب مكوثه في قوم مدين ردحاً من الزمن، قال تعالى:

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ [طه، ٢٥-٢٨].

ولما اقتضت السّنن العقلية والنصوص النقلية أنّ يكون كل رسول أو نبي -قصّه الله على رسولنا أو لم يقصصه عليه- إلّا مستخدماً لغة قومه؛ بنظامها الإبلاغي المزروع فيها إلى حدّ الانغماس؛ بغية تحقيق التواصل الهادف، والتحاور البنّاء، والجدال المثمر، نال بذلك الانسجام اللساني بين أفراد قومه المكانة المرجوّة، حتى توطّدت بينهم العلاقة الأخوية التي ذكرها القرآن في عدّة مواضع حكاية عن أربعة أنبياء هم [وفق الترتيب الألفبائي]: شعيب، وصالح، ونوح، وهود -عليهم السلام-:

فقال تعالى -حكاية عن سيدنا شعيب عليه السلام-: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ...﴾ [الأعراف: ٨٥، وهود: ٨٤، والعنكبوت: ٣٦].

وقال تعالى -حكاية عن سيدنا صالح عليه السلام-: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ...﴾. [الأعراف، ٧٣، والنمل: ٤٥].

وقال تعالى -حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام-: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ...﴾ [الشعراء: ١٠٦].

وقال تعالى -حكاية عن سيدنا هود عليه السلام-: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ...﴾ [الأعراف: ٦٥، وهود: ٥٠، ٦١].

ولعلّ ذلك ما أدّى بسيدنا موسى عليه السلام -فضلًا عمَّا سبق- أن يصدح بعلاقة الأخوّة -تقديماً وتأخيراً- في طلبه، قال تعالى على لسانه: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ...﴾ [القصص: ٣٤] ، وقال أيضاً: ﴿هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه: ٣٠-٣١].

فلم يجد بدًّا من أن يتوسّل في خطابه بالعلاقة الأخوية التي تربطه بهارون عليه السلام -دماً ورسالةً- حين خشي من لغته القصور في تحمّل مضامين ما أُوحِي إليه؛ من أجل تبليغ رسالة ربّه إلى قومه.

وإن هذه الأخوة هي التي جعلت أحد اللذين تسوَّرَا المحراب على سيدنا داود عليه السلام يقرُّ بأخوّة مرافقه ولا ينكرها رغم قناعته بأنه ظلمه بسلب حقِّه، وفاقه في فصاحة اللسان، وحسن البيان، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَآ أَخِي... وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣].

وهكذا يمكن القول بـــأن القرآن قد دعا إلى التسامح اللساني بوصفه غرضاً تواصلياً وآية كونية وملمحاً إنسانياً، لأنه من أساليب بناء جسور التواصل والتعارف بين بين الأفراد والشعوب والأمم، ويعكس وجهاً من أوجه التعايش بين جميع المخلوقات والظواهر الكونية، التي يدخل جميعها ضمن أنساق الآيات الكونية.

ثانياً – التسامح اللساني في السيرة النبوية:

تجدر الإشارة –تتمّة لما ورد في العنصر السابق– إلى أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يحتج ﷺ في تبليغ رسالته إلى إبراز علاقته الأخوية بقومٍ أو شعبٍ أو عمارةٍ أو بطنٍ أو قبيلة؛ لأنّه رسول الله للنّاس جميعاً، لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ [النّساء: ٧٩]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، فكان خطابه موجّهاً لجميع النّاس باختلاف ألسنتهم وألوانهم وأعراقهم وأنسابهم.

ومع ذلك فإننا نجد في سيرته –صلى الله عليه وسلم– وسيرة أصحابه – رضي الله عنهم– ما يتصل بالتسامح اللساني ضمن قضية التعدد اللغوي، ونسوق للتدليل على ذلك النماذج الآتية:

– أمره –صلى الله عليه وسلم– زيد بن ثابت رضي الله عنه (ت ٤٥ه) بأن يتعلّم له كلمات من كتاب يهود، قال زيد –رضي الله عنه–: «... فما مر بي نصفُ شهر حتى تعلمتُه له، قال: فلمّا تعلمتُه كان إذا كتب إلى يهودَ كتبتُ إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأْتُ له كتابَهم»(١).

وأيًّا كان سبب إيراد هذا الخبر في كتب الحديث والسير والتاريخ والغرض منه، فإنّ ما يهمنا في هذا المقام ما قام به زيد ﷺ من فعل ترجميّ بأمرٍ من النبي ﷺ. وفوق هذا كله لم يثبت في كتب الفقه قديماً أو حديثًا النهي عن تعلم لغة من اللغات لسبب ما، جاء في تحفة الأحوذي: «لم يرد في شرعنا الحنيف تحريم تعلم لغة من اللغات: سريانية، أو عبرانية، أو هندية، أو تركية، أو فارسية». (المباركفوري، ١٩٩٩، ٩/ ٥٣).

- ويذكر الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ه) في كتابه "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع": «جاء عمر بصحيفة فقال: يا رسول الله بعث إلي بهذه الصحيفة رجل من بني قريظة فيها جوامع من التوراة أقرأها عليك فجعل عمر يقرأ...». (الخطيب البغدادي، ١٩٩٦، ٢/ ١٥٥).
- وفي البداية والنهاية لابن كثير (ت٧٧٥ه) أنه «كان لـــ [عبد الله] بن الزبير [ت ٧٣ه] [–رضي الله عنهما] مائة غلام، يتكلم كل غلام بلغة غير لغة الآخر، وكان ابن الزبير يكلِّم كل واحد منهم بلغته». (ابن كثير، ١٩٩٢، ٨/ ٣٣٩) ، ويبدو أنه قد تعلم من كل غلام لغته.

وتذكر المصادر أن الفترة التي مكثها المهاجرون إلى الحبشة قد سمحت بنقل العديد من الممارسات اللغوية الحبشية إلى المدينة، ومن ذلك ما روي أن أسماء بنت عميس (ت٣٨ه؟) قد نقلت الكثير من المفردات والتراكيب اللغوية الحبشية معها إلى المدينة، حتى سماها بعض الصحابة بـــ "الحبشيّة". (ينظر: البخاري، ٢٠٠٢، حديث رقم: ٤٠١٦)

إن مثل هذه الرواية وغيرها –مهما كانت خلفياتها، وتأويلاتها عند الدارسين– لتدل بوضوح تامٍ على عدم وجود موانع الانفتاح اللغوي في الوضعيات التخاطبيّة المختلفة داخل الوسط العربي أو خارجه.

بحيث كانت اللغة وسيلة للتواصل، ومعرفة ما لدى الآخر، فنشأ مجتمع متعدد اللغات، عَكَسَ عدمَ ممناعة الثقافة الإسلامية لتقبل الممارسات اللغوية الأجنبية، بل جعلها جسوراً للتواصل والتعايش. وهو الأمر الذي تدعو إليه

الكثير من الاتجاهات الفكرية والعلمية والثقافية المعتدلة المعاصرة في ما يعرف بالحوار الثقافي وحوار الحضارات. وإن البحث فيه –هو في الحقيقة– بحث في التناغم بين الأجناس البشرية بمختلف أطيافها ومكوناتها وأبرز تلك المكونات اللغة؛ وهو ما يصبُّ في موضوع التسامح اللساني –الذي نحن بصدده– بشكل مباشر.

ومعلوم أن هذا التسامح اللساني من شأنه أن يجسد التعاون الثقافي بين أطراف متعددة ومتنوّعة، بحيث يبقى التواصل الثقافي والفكري هدفًا ساميًا ونبيلًا بين أفراد الأسرة الإنسانية، كأنّه يمثّل مسار الحركة الثقافية للبشرية.

ثالثًا – التسامح اللساني في التفكير والخطاب العلمي:

إن منظومة العلم برمتها لتتيح للعَالِــم –بما تمنحه من أدوات معرفية ومنهجية وروح علمية ونزعة موضوعية، ووسائل ابستيمولوجية متنوعة– ما يجعله ينسلخ من ذاتيته، ويحاول أن ينأى بجنبه –ما استطاع إلى ذلك سبيلًا– عن قناعاته الضيقة، ويركن إلى الحقيقة في أرقى تجلياتها؛ كائنًا ما كان انتماؤه الإيديولوجي ومن أي جنس كانت مصادره وأدواته.

وبذا كان العالمُ الحقيقيُّ الممثِّلَ الشرعيَّ للتسامح بمفهومه السّامي العام: في أدواته المعرفية، وطرق تفكيره، ومناهج بحثه، وأحكامه المطلقة، ومناقشاته وآرائه ومواقفه؛ بحيث ينعكس كل ذلك على خطابه العلمي الذي تتضمنه مؤلفاته ومحاوراته الهادئة والهادفة والهادية.

وإن المتمعن في تاريخ الحضارة العربية والإسلامية ليلحظ أن علماءها قد تركوا بصماتهم الأصيلة والمتميزة في هذا الشأن تفكيراً وممارسةً، تنظيراً وتطبيقًا، منذ أول بدء التصنيف والتأليف. وازداد ذلك خلال العصر العباسي (القرون الوسطى بالنسبة للغرب) وتحديداً القرنين الرابع والخامس الهجريين، حيث يمكن عدُّه أنصع فترة من تاريخ هذه الحضارة؛ لأنها وَسَمت الخطاب العلمي في مختلف العلوم والفنون والمعارف بسمتي الإبداع العلمي والتسامح اللساني.

ناهيك عن النواحي الأخرى الثقافية والعلمية والاجتماعية والإيديولوجية التي طبعت بتقدير الذات دون الانسلاخ عن المنظومة القيمية، واحترام الآخر مهما كانت مشاربه، وتمثُّلِ مقومات الهوية تمثُّلًا امتدَّ تأثيرُهُ إلى مظاهر الرُّقيّ والازدهار حتّى وُصِفَ بالعصر الذهبي.

وإن المقام لا يكفي لتتبع تلك الجهود في مجال التسامح اللساني، إن على مستوى التفكير والتنظير، أو على مستوى الممارسة والتطبيق، غير أننا سنتعقب في كل مستوى أنموذجًا، قد يكون وافيًا بإماطة اللثام عن مظاهر هذا التسامح في المجال اللغوي.

١ – التسامح اللساني في أفكار العلماء المسلمين ونظرياتهم:

إن أبرز من تعاطى فكرة التسامح اللساني في رؤيته للغات البشرية بأبعادها النسقية (المعجمية والنحوية والدلالية) والوظيفية هو ابن حزم (ت٤٥٦ه) في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام" حيث ينتقد فيه آراء فلاسفة اليونان وموقفهم من اللغات، ليبيِّن غلطهم الفادح وتطرّفهم الفاضح؛ في تعصبهم إلى اللغة اليونانية وازدراء باقي اللغات البشرية، بل إنكار لسانيَّتها وماهيتها كلغات ذات أنظمة ووظائف؛ ومن هؤلاء الفلاسفة ما صرح به جالينوس (ق٣م) قائلًا: «إن لغة اليونانيين أفضل اللغات؛ لأن سائر اللغات إنما تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع...». (ابن حزم، ٢٠٠٨، ١/ ٣٤)، ويعلِّق ابن حزم على هذا بقوله: «وهذا جهل شديد؛ لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا فهمها فهي عنده في النصاب الذي ذكر جالينوس ولا فرق». (ابن حزم، نفسه).

ولم يقف عند هذا بل رد ابن حزم ردًّا قاطعًا، ليستأصل ذلك الوهم؛ يقول: «وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له؛ لأن وجوه الفضل معروفة. وإنما هي بعمل أو اختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدّخان: ٥٨]، فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن على العرب إلا ليفهم ذلك قومَه –عليه السلام– لا لغير ذلك». (ابن حزم، ٢٠٠٨، ١/ ٣٣-٣٤)

ويضيف: «... لأنّ الله –عز وجل– قد أخبرنا أنّه لم يرسل رسولًا إلا بلسان قومه، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]... فبكلّ لغة قد نزل كلام الله تعالى ووحيه، وقد أنزل التوراة، والإنجيل والزبور، وكلم موسى –عليه السلام– بالعبرانية، وأنزل الصحف على إبراهيم –عليه السلام– بالسريانية، فتساوت اللغات في هذا تساوياً واحداً». (ابن حزم، ٢٠٠٨، ١/٣٤)

بل إنه صرّح بما يتنزّل في صميم التسامح اللساني –الذي نحن بصدده– فقال: «وحروف الهجاء واحدةٌ لا تفاضل بينها، ولا قبحَ ولا حسنَ في بعضها دون بعض». (ابن حزم، ٢٠٠٨، ١/ ٣٥)

وبعد هذا يمكن أن نستنتج من قول ابن حزم هذا، المتعلق بموقفه من النظام اللغوي للألسن البشرية، عدة أمور، أبرزها:

أ – لم يخرج عن منهجه المعروف عنه الذي يستند إلى ظاهر الظواهر الكونية والمسائل الفكرية، في تناول القضايا ذات الصلة بحياة الإنسان الدينية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية والفلسفية. وربما كان منهجه الظاهري هذا في تناول –موضوع اللغات البشرية– سابقا من حيث مطابقته لمنهج العلماء المحدثين في مجال اللسانيات الذي حدده العالم السويسري دي سوسير [F. De Saussure] (ت١٩١٤) في محاضراته –وخاصة أصحاب المدرسة الوظيفية [Functional school]– الذين نظروا إلى الألسن البشرية بجميع تمظهراتها (لغات ولهجات وممارسات لغوية وأداءات فردية وأنظمة تواصلية فعالة متنوعة) على أن لها قاسماً مشتركًا ثابتًا يجمعها؛ يكمن في عنصر الوظيفة/ الوظائف، سواء على مستوى البنية الصوتية أو التركيبية، وهو

ما تضمَن تحقيقه بقية العناصر اللسانية وفوق اللسانية (البنية، السياق والمقام والاستعمال...).

ب – إنه بذلك –وبمنهجه المعروف– يكون قد نظر إلى جميع اللغات البشرية نظرة آنية وصفية براغماتية. وهذا الملمح من ملامح التسامح اللساني – في الحقيقة– بمثابة البنية السطحية –على حد قول أصحاب النظرية التوليدية التحويلية– التي تكشف عن بنية عميقة تتمثل في الإشارة ضمنيًّا إلى وقوفه على مسافة واحدة من التسامح الوجودي الذي يربط بين جميع البشر أممًا ومجتمعات وأفرادًا.

وبعد هذا التطابق بين فهم ابن حزم للظاهرة اللغوية والتفكير اللساني الحديث، يحق لنا أن نتساءل:

هل يمكن أن يكون دي سوسبر –في تحديده لموضوع علم اللغة– قد وصلته –بطريق أو بآخر– أفكار ابن حزم أو من نقل عنه؟

وفي حال كانت الإجابة عن هذا التساؤل المشروع بالإيجاب، فلا شك أن ذلك يتطلب منا تدليلًا ماديًّا قاطعًا، وأنّى لنا ذلك؟ وليس لنا من أفكار دي سوسير إلّا محاضراته التي نشرها تلميذاه: ش. بالي. [C. Bally] أ.سيشهاي [A.Sechehaye].

وفي الحالتين معًا؛ لم يكن ذلك لينقص من مكانة دي سوسير العلمية الاستباقية في مجاله، وبما تطلبته الحياة المعاصرة؛ حتى ولو استقى من فكر ابن حزم، كما فعل ذلك اللساني والفيلسوف الأمريكي شومسكي [N. Chomsky] الذي أخذ أصول نظريته من النحو العربي، كما يظهر من خلال تصريحه لأحد تلامذة اللساني عبد الرحمن الحاج صالح (ت ٢٠١٧م) بأنه درس متن الآجرومية على يد أستاذه روزنتال. (الحاج صالح، ١٩٩٧، ص٩٣، والحاج صالح، ٢٠١٢، ص٢١٥).

وأيًّا كان حصول هذا التأثر أو مدى مقداره، فلا ينقص من القيمة العلمية

للعالم؛ إذ المعرفة مجموعة من التراكمات الفكرية، ومسألة التأثير والتأثر كائنة ومستمرة في جميع ما يتعلق بالإنسان والكون والحياة.

يبقى أن نشير –في هذا السياق– إلى أن هناك تقاطعاً بين ابن حزم ودي سوسير؛ بحيث يشتركان في شيء ويختلفان في آخر:

فأما ما يشتركان فيه فهو مبدأ نبذ التفريق التأثيلي بين اللغات البشرية؛ لطبيعة الأسرة المنتمية إليها هذه اللغة أو تلك أو لاعتبارات تاريخانية أو منهجية، أو لطبيعة الأنظمة الصوتية والنحوية والصرفية والتركيبية والدلالية التي تتسم بها كل لغة على حدة، أو لأرومة أو سلالة الناطقين بهذه اللغة أو تلك، وقد سبقت الإشارة إليه، ولعل السبب في ذلك يعود لكون كل واحد منهما نشأ في وسط يتسم بالتعدد اللساني –انغماساً أو تجاوراً– (الأندلس، وسويسرا).

وما يختلفان فيه هو ما يتعلق بعامل الظروف الزمانية والمكانية، حيث إن بينهما عقوداً من الزمن استطاع من خلالها ابن حزم أن يؤصّل –في تناوله– قضيةً تعدّ من القضايا الأساسية والجوهرية المكملة لبقية القضايا الحاسمة التي قامت على أسسها الحضارة العربية والإسلامية، التي تكمن –برأيي– في تقبلها للآخر أيًّا كان؛ لأن في ذلك إغناءً للجانب الديموغرافي وإثراءً للبعد السوسيو ثقافي، كما يكمن في انفتاحها على مختلف الثقافات الأخرى؛ دون تعصب، أو حمية، أو تحيز لأرومة أو عرق أو لون.

وأما دي سوسير فلم يعش هذا الترف الفكري؛ (على الأقل نظرياً)، لأنه عاصر علماء وفلاسفة، ورثوا –أثناء دراساتهم الفيلولوجية المقارنة – المفاضلة بين اللغات جيلًا عن جيل[٢]، تبعاً لرؤى فلسفية، وأهواء إيديولوجية، ونظريات فكرية مجرّدة، صارت مناهجها وأهدافها بعد دي سوسير –بله في عصرنا– بائدةً أو في حكم البائد، لا تذكر إلا في أدبيات الدراسات، أو خلال التناول التاريخي لما يتعلق بالحقبة التي عاشها، (ينظر مثلا: حساني، ٢٠١٣، ص١١ وما بعدها). ولذا عُدَّت أفكار دي سوسير والمفاهيم التي أتى

بها ثورةً علميةً على الدراسات اللغوية (الفيلولوجية المقارنة) السائدة في عصره وقبل عصره.

ومهما قيل عن هذا الاتجاه أو ذاك، ورغم أن مثل هذه النظريات والاتجاهات -كما سبقت الإشارة إليها- لم يبق منها في عصرنا إلا ما يذكر في أدبيات البحث العلمي. فهي -في النهاية- مرحلة أدت إلى انتعاش البحث اللساني وتطور التناول المعرفي بشكل عام؛ تبعًا لاحتياجات الفرد المتنوعة ومتطلباته، من جهة، ومقتضيات العصر الذي ظهرت فيه أفكاره من جهة أخرى.

من هنا نخلص إلى أن ابن حزم يمثّل أنموذجًا من نماذج علماء الحضارة العربية والإسلامية الذين رسخوا بمنهجهم الظاهري وفكرهم العميق مفهوم التسامح اللساني بوصفه قيمة وجودية وحضارية وإنسانية، وأن الأصوات (الفونيمات) التي تتشكل منها لغات البشر بمثابة ألوانهم، وأن التمييز بين اللغات -مهما كان السبب أو الهدف- بمثابة التمييز العنصري بين الأفراد، الذي تنبذه الأعراف والشرائع والقوانين والفطرة السليمة.

٢ - التسامح اللساني في ممارسات العلماء المسلمين:

يسعنا في هذا العنصر أن نسوق أنموذجًا آخر من النماذج التي تفخر بها الحضارة العربية والإسلامية، وتحديدًا خلال القرنين الرابع والخامس الهجريّين، اللذين شهدا نشاطًا علميًّا وثقافيًّا متميزًا، بفضل حركة الترجمة من اللغات الأجنبية خاصة من الهندية واليونانية والفارسية إلى العربية، يقول الجاحظ (ت٢٥٥هـ): «وقد نُقِلت كتب الهند، وتُرجِمت حكم اليونان، وحُوِّلت آداب الفرس، فبعضها ازداد حُسْنًا، وبعضها ما انتقص شيئًا». (الجاحظ، د.ت، ١/ ٧٥)

وهذا مظهر من مظاهر التسامح اللساني في الانفتاح على ما لدى الآخر من زخم معرفي وتراث حضاري، ونضج ملكات العلماء المسلمين في البحث والتأليف والتّجريد، وتشجيع الخلفاء والسلاطين في مشارق الأرض

ومغاربها. ولم تمنع الاضطرابات السياسية، من ازدهار الثقافة وانتشار العلم بل ربما كانت عاملًا مهمًّا في ذلك. ولا أدلّ على ذلك من بروز العديد من العلماء في عدة مجالات أذكر منهم:

النيسابوري والدارقطني في الحديث، وأبو علي الفارسي وابن دريد والنحاس وابن فارس وابن جني والزجّاج في النحو واللغة، والمتنبي وابن حجاج وابن طباطبا وأبو فراس في الشعر، وابن سريج وإبراهيم المروزي في الفقه، وابن زولاق والشابشتي والطبري في التاريخ، وابن مقلة في الخط، وابن نباتة في الخطابة، والاصطخري والمقدسي والبكري وابن الهيثم والخوارزمي والخازن وابن سينا في الرياضيات والفلك والطبيعة والجغرافيا والطب وسائر العلوم الأخرى، وغيرهم. (ينظر: متز، ١٩٩٩، ٣١٩ وما بعدها).

ومن هؤلاء العلماء أبو الريحان البيروني (ت٤٤٠ه) الذي –نظرًا لمكانته العلمية والفكرية– سُمِّي عصره باسمه. فهو من النماذج التي تمثلت مفهوم التسامح اللساني، في حوار فكري وثقافي راقٍ، ظهر من خلال ممارساته العلمية، التي نقلتها لنا كتب التاريخ والسير والتراجم، وكذا مؤلفاته العديدة، التي تبلغ ١٨٢ مؤلفًا (D.j Boilot, 1955, p15, 38, 45. 46, 63, 64, 73, 95, 98, 104, 158, 168, 169.) ، ومنها كتابه "تحقيق ما للهند"، الذي أبان فيه –رغم إجلاله للغة العربية– عن انفتاحه على اللغات الأجنبية واحترامه لها، وخاصة اللغة السنسكريتية (الهندية القديمة).

فقد رافق محمود الغزنوي (ت ٣٨٧ه) إلى الهند؛ فعرفها من الداخل، وعرف لغتها السنسكريتية، وعاد إلى الهندي يسأله، وإلى النص يتفحصه ما أمكن، حتى استحق بذلك لقب "رائد الدراسات الهندية". وقد أثبتت الدراسات أن البيروني تكلم اللغتين السنسكريتية والسريانية في إجادة، بل وألف بعض كتبه بهما. (ينظر: الفوال، ٢٠٠٠، ١٦٨).

لقد درس البيروني الخط الهندي والكتابة، وقارن بين السنسكريتية والعربية والفارسية، ونقل المصطلحات الهندية إلى العربية بكل أمانة. ولم

تزده مدة بقائه في الهند المقدرة بـــ: ٤٠ سنة –على نحو ما ذكره المؤرخون– إلا بروزاً في سماء العلم والمحاجَّة. وأعطى خلال هذه الفترة صورةً مشرفةً عن التسامح العقدي والعلمي والثقافي واللساني، وكان بمثابة سفير فوق العادة للعلاقات الثقافية بين الهند والعالم الإسلامي، باعتراف الهنود أنفسهم.

ولم يكن له ذلك إلا بما تميز به من الدِّقة؛ والاتجاه نحو الموضوعية في المعرفة والكتابة والنظر، دون تحيز أو تعصب بعيداً عن الجدل، مع تقديم الوصف النزيه، بكل التفاصيل للثقافة الهندية والحياة الاجتماعية، وبذلك استحق الوصف بكونه أكبر عقلية عرفها التاريخ، على حد تعبير إدوارد ساخاو [Idward Sachau] (ت ١٩٣٠) (٣) ناشر كتاب "تحقيق ما للهند".

وتجدر الإشارة هنا إلى أن البيروني لم يقف من خلال انفتاحه اللساني على اللغة السنسكريتية عند دراسة النواحي العقدية والاجتماعية والثقافية، بل إنه تطرق إلى قضايا لغوية وأدبية ترتبط بالنحو وموسيقى الشعر العربي، وراح يقارن بينهما وبين النحو العربي وعروض الخليل. (البيروني، ١٩٨٣، ٩٦ وما بعدها).

ولا يهمنا في هذا الصدد عرض تفاصيل هذه المقارنة (ينظر: بوعبدالله، ٢٠٢١، ١٠٩ وما بعدها) بقدر ما يهمنا أن البيروني استطاع من خلال اطلاعه على ما لدى الهنود من معتقدات وعلوم وفنون وآداب أن ينقل للعالم الإسلامي جانباً من التلاقح الابستيمولوجي الذي يعدُّ من القضايا التي تنم عن وجود حوار ثقافي وتعايش علمي وتسامح لساني راق، وهو في الوقت نفسه يكشف لنا عن المدى الذي بلغه هذا الاحتكاك الإيجابي بين الحضارة العربية والإسلامية وغيرها من الحضارات عموماً، والهند على وجه الخصوص في مجال العلوم والآداب واللغات.

كما أنه استطاع أن يكشف لنا عن الدور الذي أدّته التراكمات المعرفية

المتنوعة في تشييد الحضارة الإنسانية الشاملة (عكاشة، ١٩٨٨، ٧٣ وما بعدها)، والمحافظة على العناصر الأساسية التي تقوم عليها الكيانات الثقافية، وإزاحة جميع العوائق الفاصلة التي قد تعرقل سيرورات العلوم التي تنفع البشرية.

ويمكن القول بأنّ البيروني كان -بتسامحه اللساني وانفتاحه المعرفي- مجسداً من الطراز الأول لحوار الحضارات والثقافات، على اعتبار أن مصطلحي: "الحضارة" و"الثقافة" شاملان لكل مظاهر الحياة من جهة، ومن جهة أخرى فإن الحوار بهذا المعنى عمل من أجل فهم أعمق ومتطور لهوية كل ثقافة؛ قصد إبعاد الفهم المولد للكراهية والعداوة التي يكون مصدرها في كثير من الأحيان الجهل بالآخر.

خاتمة:

وهكذا نصل في نهاية البحث إلى نتائج نلخص بها إجابتنا عن التساؤلات البحثية المطروحة في بدايته، ونجملها فيما يأتي:

- إن التسامح اللساني -وإن كان متعلقًا بمنظومة اللسان البشري- فإنه يتجاوز العناصر الجغرافية والديموغرافية والإيديولوجية والبراغماتية الضَّيِّقة، وأنه عنصر من العناصر البنائية للمجتمعات البشرية بجميع مكوناتها العقدية ومرتكزاتها السوسيو ثقافية، وهو الذي جسدته الحضارة العربية والإسلامية، فكان تسامحًا مبنيًّا على فهم عميق للذات وللآخر، نابعًا من إدراك معرفي وجمالي كلي لمقاصد النصوص القرآنية وجوهر السيرة النبوية، بالإضافة إلى اتّزان فكري لدى العلماء وامتلاكهم الأدوات العلمية والمنهجية الفعالة، التي تضمن الوصول إلى الحقيقة دون تشدّد أو تعصّب، أو تهاون في تحمل المسؤولية الحضارية، أو تقاعس عن خدمة الإنسانية بوجه عام.

- إن الحضارة العربية والإسلامية قد أسهمت في تعزيز مفهوم التسامح

اللساني، من خلال ما ورد في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، التي دلت على أن للألسن البشرية وظيفة تواصلية لبناء أواصر الأخوة بين البشر مهما كانت أرومتهم وانتماءاتهم وآية من الآيات الكونية التي تندرج ضمن نسق متناغم. كما تجلت مظاهر هذا المفهوم من خلال أفكار العلماء المسلمين، كما هو الشأن عند البيروني وابن حزم، الذين أظهرا وعيا فكريا راقيا تجاه الألسن البشرية تنظيرا وممارسة.

– إن التسامح اللساني؛ هو تدعيم لبناء الصرح الحضاري والإنساني، فهو بذلك ركيزة من ركائز نسج العلاقات الإنسانية، وهذا في الواقع مسلك واضح يقودنا إلى إدراك صحيح لما يعنيه مفهوم ثنائية (حضارة/ إنسان)، وما ينجرُّ عنها من فهمٍ صحيح وواثق لثقافة الآخر، فهمٍ يجب التركيز فيه على العناصر الكلِّية للأفكار.

وفي الختام يوصي الباحث بضرورة اتباع كل ما من شأنه أن يعزز هذا المسلك الإيجابي، واعتماد الأدوات الفكرية والعلمية والمنهجية والثقافية والتربوية المساعدة على ذلك، ومن أهمها تأليف الكتب، ونشر الأفكار، وبثّ المشاعر بلسان كلّ طرف من أطراف التواصل لتكون جسوراً للتفاهم، وعنواناً للتعايش.

الهوامش:

١ – أخرجه أبو داود، ٢٠٠٦، حديث رقم: ٣٦٤٥. الترمذي، ١٩٩٦، حديث رقم: ٢٧١٥، واللفظ له. ابن حنبل، د.ت، حديث رقم: ٥/ ١٨٦، باختلاف يسير عنده.

٢- من هؤلاء للفلاسفة الألمان: شليجل [F.Schlegel] (١٧٧٢-١٨٢٩)، وهمبلد [F.w.Humboldt] (1767-1835)، وشلايشر [A.Schleicher] (١٨٢١-١٨٦٧)، وغيرهم.

٣- هو كارل إدوارد سخاو (١٨٤٥-١٩٣٠)، مستشرق ألماني، تعلم العربية في بلاده، وعيِّن سنة ١٨٦٩ أستاذًا للغات السامية في جامعة فينا. وفي سنة ١٨٧٦ أستاذًا للغات الشرقية في برلين. ساح في الشام والعراق، ومما نشره بالعربية: "الآثار الباقية عن القرون الخالية"، و"تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في الذهن أو مرذولة"، كلاهما للبيروني. وأربع مجلدات من طبقات ابن سعد (وأكمله غيره)، والمعرب للجواليقي.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم.

البخاري، محمد بن إسماعيل. (٢٠٠٢). صحيح البخاري، دار ابن كثير.

بوعبدالله، لعبيدي. (٢٠١٢). حوار الثقافات في العلوم العربية من خلال رحلة أبي الريحان البيروني، علم العروض أنموذجًا، مجلة *حوليات جامعة الجزائر*، العدد (٢٢)، ١٠٩-١٢٢.

البيروني، أبو الريحان. (١٩٨٣). تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في الذهن أو مرذولة، عالم الكتب.

الترمذي، محمد بن عيسى. (١٩٩٦). سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، ط(١)، دار الغرب الإسلامي.

الجاحظ، عمرو بن بحر. (د.ت). الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل.

الحاج صالح، عبد الرحمن. (١٩٩٦). النظرية الخليلية الحديثة، مجلة *اللغة والأدب*، مجلد ٠٥، العدد (٠٣)، ٨٥-١٠٠.

الحاج صالح، عبد الرحمن. (٢٠١٢). بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ط(١)، موفم للنشر.

ابن حزم، علي بن أحمد. (٢٠٠٨). الإحكام في أصول الأحكام، نسخة محققة، ومقابلة على تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة.

حساني، أحمد. (٢٠١٣). مباحث في اللسانيات، ط(٢)، منشورات كلية الدراسات الإسلامية والعربية.

ابن حنبل، أحمد بن محمد. (د.ت). مسند الإمام أحمد، تح: شعيب الأرنؤوط، وآخرون، مؤسسة الرسالة.

الخطيب البغدادي، أحمد بن علي. (١٩٩٦). الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تح: محمد عجاج الخطيب، ط(٣)، مؤسسة الرسالة.

أبو داود، سليمان بن الأشعث. (٢٠٠٦). سنن أبي داود، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط(١)، دار الرسالة العالمية.

درقاوي، مختار. (٢٠١٣). التسامح اللغوي في بعض مدونات الصواب اللغوي، مجلة *مقاربات*، مجلد: ٠٦، العدد: (١٢).

بن سليمان، عمر. (٢٠١٧). تأصيل مفهوم التسامح في التراث العربي الإسلامي، مجلة *الحكمة للدراسات الإسلامية*، العدد (٩).

الطبري، محمد بن جرير. (٢٠٠١). تفسير الطبري (جامع البيان عن تفسير آي القرآن)، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط(١)، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

العارضي، محمد جعفر. (٢٠١٩). سياسة التسامح اللساني القرآني، منهج في اللسانيات الدلالية الحضارية وتحليل الألفاظ الأعجمية في سياق الجنة، مجلة *الآداب والعلوم الاجتماعية*، مجلد: ١٠ ، العدد (٣).

العبادلة، حسن عبد الجليل. (٢٠١٢). التسامح في القرآن الكريم، مجلة *دراسات وأبحاث*، العدد (٩).

عكاشة، شايف. (١٩٨٨). الصراع الحضاري في العالم الإسلامي: مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، ط(٢)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون.

عيسوي، عبد الرحمن. (١٩٩٣). علم النفس والإنسان، الدار الجامعية للطباعة والنشر.

الفوال، صلاح مصطفى. (٢٠٠٠). الموسوعة الإسلامية للعلوم الاجتماعية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر. (١٩٩٢). البداية والنهاية، مكتبة المعارف.

المباركفوري، محمد عبد الرحمن. (١٩٩٠). تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ط(١)، دار الكتب العلمية.

متز، آدم. (١٩٩٩). الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة. (٢٠٠٤). المعجم الوسيط.

النملة، علي بن إبراهيم. (٢٠٠٦). النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية، ط(٣)، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوكنية السلسلة الثانية.

ب/ الأجنبية:

- D.j Boilot. L’oeuvre d’al-berouni, essai bibliographique de l’institut Dominican d’études orientales, Le Cair.